

إيران وسيكولوجية «عابر الطريق»

يقودنا تحليل الجانب الأنثروبولوجي في السلوك الثقافي-السياسي الفارسي إلى إطار أوسع من التحليل الجيوسياسي التقليدي، حيث تتداخل هنا عوامل التاريخ والجغرافيا والهوية والدين لتشكّل ثقافة تعاملت مع الصراعات الطويلة بمنطق خاص، على مدار عهود أنظمة الحكم المتعاقبة، وبمنهجية ثقافية خاصة بالشخصية الفارسية، التي قد لا يوجد لها مثيل في ثقافات أمم أخرى.

أحد مفاتيح هذا التحليل، لفهم السلوك الفارسي في صراعه الدائم مع «الآخر»، هو موقع إيران الجغرافي والتاريخي الفريد في مفترق طرق الحضارات والأقوام والأديان التي أسست التاريخ البشري. هذا الموقع أنتج لدى الفرس سيكولوجية «مَن هم على الطريق»، وما يتحمّله هؤلاء من مصاعب «العبور»، وما يجعلهم على الدوام في حالة الشعور بالموالفة «الصراع» مع الآخر «العدو» (الفرس، إيران في العصور القديمة والوسطى والحديثة؛ هوما كاتوزيان، ط-1-2014).

ومن جملة العناصر المركبة التي أنتجت سيكولوجية الصراع مع الآخر هو أنها جعلت الإيرانيين أكثر عرضة لخطر الاغتراب الثقافي، وفقدان الهوية بين الأقوام الأقدم والحضارات الأعرق المحيطة بهم، وهذا ولد شعوراً عميقاً بالحاجة إلى التمسك بالاستمرارية التاريخية في الصراعات، وربطها

ببعض، واعتبار التهديد الخارجي (الحقيقي والمُتخيل) ليس خطراً عسكرياً فحسب، بل خطراً وجودياً وهوياتي (The Iranian Mind: Trauma Rupture and the Survival of a... | by Pro-methean Light: Zarathustra & bermensch | Jul 2026 | Medium).

سيكولوجية «العبور»

والاغتراب الثقافي

الفارسي.. المنشأ

والاستمرارية

يعد كتاب «شاهنامة» أو «كتاب الملوك»، للشاعر الفارسي أبو القاسم الفردوسي (329-416هـ / 1025-940م) منعطفاً فارقاً في تاريخ الهوية الثقافية الإيرانية، هو عمل أدبي ضخم يحمل في طياته أكثر من كونه مجرد شعر ملحمي. إنه أشبه بـ«ذاكرة» الأمة الفارسية وحصنها الثقافي، ولعب دوراً محورياً في تشكيل الثقافة الإيرانية.

في شاهنامة، لا قيمة لشخصية ثابتة أو مستقرة، بل البطل الحقيقي هو من يغادر وطنه، أو يواجه الوحوش، أو يخوض الحروب، أو يبحث عن شيء مفقود. الحركة هي الحياة، والثبات هو الموت.

منذ البداية، يبدأ العمل بخلق النظام من الفوضى، لكن هذا النظام لا يدوم إلا بالجهد المستمر ضد قوى الظلام والشر. هذه الصراعات ليست خارجية فقط، بل هي مرايا لمعارك داخلية بين النور



○ بقلم:

سميرة بن رجب

والظلام، الخير والشر، وغيرها من الثنائيات، في الطبيعة. شاهنامة خلق سيكولوجية السالك، أو العابر، في العقل الفارسي، وهو الإنسان الذي يعيش حالة دائمة من الترحال الوجودي، ويواجه المصاعب ليس لأنه يبحث عن المجد، بل لأن المصاعب هي دليل وجوده وحقيقته. هذا الإنسان يرى في الألم تكريماً، وفي الثبات خيانة للذات، وفي الراحة بداية للاندثار.

اتحاد الملك والدين

الشاهنامة بما يحمله من سرد تاريخي أسطوري، يعكس ثقافة تقديس الملوك والرموز الفرس، لأنهم يحملون «النعمة الإلهية» التي تلهمهم القوة الجبارة، والأخلاق والعدل والحكمة؛ ويعكس شخصية الملك الفارسي عبر التاريخ على أنه الحارس للغة الفارسية والهوية الإيرانية،

حيث أسهم في بقاء «الحضارة» الإيرانية عبر قرون من التحولات، ما جعل من الكتاب رمزاً قومياً يُقدس (Beyond poetry: Shahnameh as guardian of Iranian identity – Tehran Times).

زرع كتاب «شاهنامة»، الذي يتم تعليمه للأطفال، والكبار، في مدارس إيران، بذور ثقافة تقديس الرموز وبناء الهوية القومية؛ وربط الدين بالسياسي من خلال «النعمة الإلهية»، التي جعلها هبة ربانية لكل ملك يحكم بلاد فارس، وكرّس فكرة اتحاد الملك والدين.

هذا الميراث النفسي مازال حاضراً بقوة في الثقافة الإيرانية المعاصرة، ويفسر الكثير من تعقيدات العلاقة بين الشعب الإيراني وبين السلطة، والحرب، والتاريخ، بل حتى الجمال (فجمال الحزن أعظم عندهم من جمال الفرح). تعلم الشعب من الشاهنامة أن الحياة هي جسر يعبرونه، وليس بيتاً يسكنونه.

كتاب الشاهنامة هو أكثر من مجرد قصيدة، هو نسيج معقد من الأسطورة والتاريخ والحكم السياسية؛ نجحت في أن تصبح أداة لتقديس الرموز القومية، ومرجعاً للفكر السياسي الإيراني، الذي يربط بين الشرعية الملكية والإرادة الإلهية، على الرغم من الجدل المستمر حول دور هذه الملحمة الشعرية وهويته بين كونها عملاً قومياً علمانياً أو أيديولوجياً متنافساً مع النص الديني.

الشاهنامة والصفويون.. تكريس الرباط بين الديني والسياسي رغم العلاقة الوثيقة بين سياسات الدولة الصفوية وبين ما ورد في الشاهنامة من مفاهيم حول ربط الدين بالسياسة، إلا أن الصفويين في بلاد فارس لم يكتفوا بنقل هذه المفاهيم، بل أعادوا تأطيرها وتوظيفها لتخدم مشروعهم السياسي-الديني. لم تكن العلاقة مجرد تأثر، بل كانت عملية استراتيجية لتوليد شرعية جديدة (https://www.ahewar.org/debat/s.aspx?ahewar.org/debat/s.aspx?id=894837#1).

الصفويون في بناء دولتهم على توليفة معقدة وفريدة، جمعت بين ثلاثة عناصر رئيسية لضمان شرعيتها وقوتها: القوة العسكرية (القرلباش)، الإدارة البيروقراطية الفارسية، وأخيراً وليس آخراً الشرعية الدينية المتمثلة في التشيع الاثني عشري. هذه الركائز الثلاث شكّلت نسيجاً متكاملًا، جعل الدين ليس مجرد عنصر عقائدي ثقافي، بل ركيزة أساسية للسياسة؛ ووجدوا في الشاهنامة أداة مثالية لتجسيد مشروعهم، فعملوا على إحيائه ونشره على نطاق واسع.

وظف الصفويون ملحمة الشاهنامة التي تخلد أسطورة المجد الفارسي في تقوية الروابط الوطنية لمواجهة أعداء مثل العثمانيين... استخدموا مفهوم «المنحة الإلهية» لتقديم أنفسهم كخلفاء شرعيين للملوك الفرس

الأسطوريين، وكأنهم يستمدون شرعيتهم من نفس المصدر الإلهي... وربط الصفويون ببراعة بين تقاليد الشاهنامة البطولية الأسطورية والتاريخ الشيعي، والذي ظهر بوضوح في تصوير فنون القتال الأسطورية في المعارك، وفنون المنمنمات التي صورت سلاطينهم كأبطال أسطوريين يشبهون ملوك الملحمة الشعرية، مع إضفاء صبغة شيعية على بعضهم بمد نسبهم إلى نسل الأئمة.

يعد هذا المقال القصير جزءاً يسيراً من تحليل يجب أن يتوسع مداه، ويأخذ حقه العلمي في تفسير ظاهرة السيكولوجية الإيرانية السياسية والثقافية، لما لذلك من دور قد يكون منفذاً للتحكم في الصراعات في الخليج. لقد حاولت هنا وضع قواعد أولية لفهم ثقافة الإيرانيين بعمق ليس من السهل الحفر فيه، والوصول إلى كل طبقاته، ولكن قد يجيب ضمناً على أسئلة ملحة حول أسباب الصراع التوسعي الإيراني الذي لا ينتهي، من منظور سيكولوجي وفلسفي، هل صراع إيران الخارجي هو مع خصوم حقيقيين! أم إن إيران تصنع الخصوم بفلسفة «صناعة العدو» كأداة من أدوات البقاء وإثبات الوجود! وهل يعد هذا سلوكاً دولياً طبيعياً؟ أم يعد إشكالاً عميقاً يتجاوز المفهوم التاريخي للدول!